

الدين والدولة بين الوصل والفصل والمراوحة

د. حيدر حاج إسماعيل

يبدو أنّ ثمة فراغاً عقدياً واسعاً موجوداً في طول العالم العربي وعرضه ندفع شعوبه إلى العودة إلى دفتر الحسابات العقيدية القديمة عامة والكتب العقيدية الدينية بخاصة لملكه، بغية توحيد الصوفى وخلق الجبهات القادرة على صدّ المؤامرات الأجنبية العسكرية منها والفكرية!

لن نخوض، في بحثنا الحالي، في مسألة تحليل أسباب ذلك الفراغ العقيدى المخيف حقاً وظروفه، لكننا نكتفي بأن نسجّل الإشارات الآتية التي تصلح أن نعتمد، هي وغيرها، في بحث خاص في المستقبل:

- سقوط جميع الجبهات العسكرية والسياسية والإعلامية في الحرب مع العدو الصهيوني ممثلاً بدولته الانتصافية للفلسطين، «إسرائيل»، وما نجم عن تلك الهزائم من زعزعة في الثقة وخلقة في أي أمل بقدره البشر على تحقيق الفوز العبيمن.
- فشل الأنظمة السياية في العالم العربي في برامجها الاقتصادية وظهور أفواج واسعة من العاطلين عن العمل والفقراء، والفقر طمة واحدة.
- انهيار الأنظمة الاشتراكية في العالم بانتهيار الاتحاد السوفيياتي.
- د.حاج النبوية الإيرانية الدينية.
- الأموال الكبيرة التي تصرفها بعض الدول العربية وغيرها على بعض التيارات والمؤسسات الدينية.
- الضعف النسبي للحركات العلمانية في المنطقة العربية، على الصعيد الشعبي.

وللبأسباب والظروف أفقدت الناس الإيمان بقدره الأرض وأهلها على الإنقاذ فانجبت العقول، كما يبدو، نحو السماء وكتب السماء، فصرنا نجد الحركات الأصوليّة يدها الأقوى في طول العالم العربي وعرضه.

نحن نعتقد أن تلك الحركات ليست سوى ردّ فعل ليس له مقومات لغيات بل عصب صارت الجبهات فيه جيهاث أمم وليست جيهاث أديان، والصراع فيه أصبح صراع مصالح قومية وليست صراع مؤمنين ضد كافرين.

هذه الحقيقة العصرية لم تقدر الحركات الأصولية على التنكر لها، لكنها، بالنسبة إليها، ما زالت مظهرًا وليست الجوهر. من هنا اعتقادنا بعدم قدرة تلك الحركات على البقاء إلا إذا تحوّلت إلى حركات قومية عصرية من طراز ممتاز وهو الأمر المستحيل في نظرها.

مع ذلك، مع كل الذي ذكرناه، نرى أن موضوع الدولة الدينية مطروح في هذه الأيام بقوة حتى في المجتمعات التي لا يتفتح أفرادها بتجانس مذهبي مثل مجتمعنا السوري في الهلال الخصيب.

وإذا كان المجتمع المتجانس مذهبياً، في قطر من الأقطار، لا يضرّه كثيرا العزف على وتر الدولة الدينية أو حتى إقامتها فإن المجتمع المتعدد المذاهب يقسّمه منطبق الدولة الدينية شرّ قسمةً ويعتقد قواد ويتركة لفئة سالفةً لإرارات الأجنبية الاستعمارية الطامعة. والحق يقال، إن للدولة الدينية منطلقاً خاصاً من عجائب سير ذكرها في ما يأتي:

1 - إذا كانت الدولة الدينية حقاً، فإن كل جماعة دينية لها الحق في إقامة دولتها الخاصة بها، وهكذا تكون النتيجة إقامة دولة دينية سيّية ودولة دينية شيعةً ودولة دينية درزيةً ودولة دينية علويةً ودولة دينية مارونيةً ودولة دينية أوروذوكسية الخ، في المجتمع متعدد المذهب، وتكون النتيجة الأخيرة تقنيت المجتمع وزجه في حروب دينية ما يعني انهياره الكلي وانعدامه.

2 - ومضيق الدولة الدينية يفيد أيضاً ما يأتي: بما أن كل جماعة دينية الحق في إقامة دولتها الدينية المستقلة، وبما أن اليهود جماعة دينية، وإن يحق لليهود إقامة دولتهم الدينية المستقلة! وهذا معناه

البناء

الدين والدولة بين الوصل والمطابقة والمراوحة ^(١)

ما يأتي:

«فلم يرق لي أن تفرض على المواقف والنظريات بدولة إسرائيل»، دولة الإغتصاب الصهيوني لفلسطين المحتلة لجزء من جنوب لبنان والجزولان!
3 - ومن عجائب الدولة الدينية ادّعاء أهلها بأن الدولة لها سيادة على أرض معينة أو قطر محدد تزعم أنها تملكه، وأن لا إرادة للإرادتها فاعلة فيه. في حين أن الدين يقول بأن الملك هو ملك الله وحده وأن لا شريك لإرادته في الدنيا والآخرة.

4 - والدولة الدينية، إذا وجدت، يجب أن تكون مثل الدين. فإذا كان الدين للعالمين أو عالميا، فيجب أن تكون الدولة الدينية عالمية، لذلك فإن كل دعوة لدولة دينية محددة في قطر معين ليست إلا تفضيلا للمنطق الديني على غير مبدئه العالمين.

5 - إن الدولة الدينية من صنع البشر، فهناك في تاريخ الإسلام المحمدي، على سبيل المثال، دولة الخلفاء الراشدين، وهناك دولة الأمويين، ودولة العباسيين، ودولة الفاطميين، ودولة العثمانيين وغيرهم. مع ذلك يدعي أصحاب الدولة الدينية أن تلك الدول التي قامت ودالت (زالّت) هي من صنع الله!

6 -م، يريد دعاة الدولة الدينية أن يؤسّسوها على الكتب المقدّسة، في حين أن معارف تلك الكتب روحية وتبشيرية وتشريعها مدني وليس سياسياً.

7 - والدولة الدينية هي عربيةٌ عند العرب وغير عربيةٌ عند غير العرب. لذلك نجدما تنتج خلافا في حين أن الدين جوهره الوفاق:

ما كل من تقدم نحصل النتائج الآتية:

أ - إن تطبيق نظرية الدولة الدينية في مجتمعنا السوري في الهلال السوري الخصيب جريمة يجب منع تنفيذها.

ب -إن دعاة الدولة الدينية يدعمون من حيث يدرون أو لا يدرون بقاء الدولة الصهيونية «إسرائيل».

ج -إن رجال الدين في الدولة الدينية مهما بلغوا في «العلوم الدينية» لا يقدرّون على السياسة والاقتصاد والإستراتيجيات والتكنولوجيا المتقدمة ومختلف فنون الإرادة والمحاسبة والإحصاء والتخطيط مختلف المستقبل، وغيرها من متطلبات الدولة الحديثة. لذلك يجب الفصل بين الدين والدولة، ومنع رجال الدين من التداخل في شؤون السياسة القومية والقضاء القومي الذين يجهلونهما ولا يقاهن في دائرة اختصاصهم.

سعاده والدين

في خاتمة الفصل السادس من كتاب «نشوء الأمم» يقول سعاده إن القومية هي الدين الإجتماعي الجديد الذي أصبح أساس الدولة الحديثة. هذا بالضبط قول سعاده:

«عد هذا الحد نقف في استعراضنا نشوء الدولة وتطورها لننتقل إلى درس الأمة والقومية لمعرفة حقيقة هذا المتحد الإجتماعي وأهميته التي أصبحت دين البشرية في العصور الحديثة» وغلّت شخصيتها القوية الفعّالة على شخصية الدولة»⁽²⁾.

السؤال الذي ينشأ الآن هو الآتي: هل يقصد سعاده بالدين الجديد أن يكون بدلا من الأديان السماوية؟ الجواب هو النفي. ففي رسالته إلى غسان تويني المنشورة في كتاب «شروح في العقيدة» وفي كتاب «الإسلام في رسالتيه» يحدد سعاده الدين بأغراض ثلاثة هي:

- إحلال الاعتقاد بالله محل عبادة الأصنام.
- فرض عمل الخير وتجنب الشرّ.
- تقرير خلود النفس والعقاب والقباب (الحشر)

⁽³⁾.
المعنى الواضح لهذا التهديد للدين هو إخراجها من دائرة الإجتاع والسياسة. الدين في قراءة سعاده له هو صفة الفرد وليس صفة الدولة أو الأمة.

الفرقة عن الدين التي يبدو فيها الدين شأنًا فرديًا خصوصياً يؤكدنا سعاده في رسالته الثانية إلى غسان تويني، يقول سعاده، وكان في معرض مناقشة وضع فخري معلوف الذي انقلب كاثوليكيّا متعصبًا،

«ولما كان قصد رسالة محمد الدين وليس السياسة أو فلسفة الإجتماع التي ترتقي بالعلوم الإجتماعية فلا بدّ من التسليم بأن الدولة هي الواسطة للدين الذي هو الغاية، وإن قيمتها لا يمكن أن تكون، من الوجهة الدينية، أكثر من قيمة واسطة. وبناءً عليه تكون الدولة الشيء الثانوي القابل للزوال عندما لا تبقى حاجة إليه شأن كل آلة أو واسطة أدّت الغرض من وجودها»^(٤). وربّ سائل: ما دام سعاده يقّر بوجود دولة إسلامية محمديّة، اليس يعني ذلك إقراراً منه بوجود دستور قرآني لها؟

الجواب هو النفي. ففي كتاب «نشوء الأمم» يقول سعاده الكلام الآتي الواضح الذي لا جمجمة فيه: «لم يترك محمد دستورا للدولة، فهو قد أدّم الدين ولكنه يترك الدولة تهتم بصيرها»^(٥).

لذلك فإن دولة محمد لم تكن دولة بالمعنى السياسي الدستوري الدقيق، وإنما بمعنى بسيط هو معنى القوة القاهرة. وسعاده يكمل وجهة النظر هذه في المصدر نفسه عندما يقول: «إن الفضل في إيجاد الاتجاه السياسي الدنيوي في الدولة الإسلامية يعود إلى العقيدة الإسلامية السورية الأموية»^(٦). ويقول إن الدولة الأولىّة تقوم على مبدأ القوة الفيزيائية، والدولة التاريخية كان أساسها الملك والدين بالإضافة إلى اختصاصة في سائر العلوم والفنون، بالإضافة إلى مبدأي القومية والديمقراطية المتجانسين.

لذلك فإن دولة محمد لم تكن دولة بالمعنى السياسي الدستوري الدقيق، وإنما بمعنى بسيط هو معنى القوة القاهرة. وسعاده يكمل وجهة النظر هذه في المصدر نفسه عندما يقول: «إن الفضل في إيجاد الاتجاه السياسي الدنيوي في الدولة الإسلامية يعود إلى العقيدة الإسلامية السورية الأموية»^(٦). ويقول إن الدولة الأولىّة تقوم على مبدأ القوة الفيزيائية، والدولة التاريخية كان أساسها الملك والدين بالإضافة إلى اختصاصة في سائر العلوم والفنون، بالإضافة إلى مبدأي القومية والديمقراطية المتجانسين.

تخصّص مما تقدم إلى القول بأن سعاده يرفض إقامة دولة دينية لأن وظيفتها انتهت ولم يبق لها سوى القيمة المتخفية للدرس ومعرفة تطور الإجتماع البشري، ولأن تطبيقها في زماننا معاد الانتقام فالمتو الإجماعية، هذا من جهة. وما من جهة ثانية، لأن الدولة، بمعناها العصري، تعدّت وجود خليفة أو أمير على رأسها مع حاشية، إلى أن عدت مؤسسات اختصاصية في سائر العلوم والفنون، بالإضافة إلى صيرورتها ديمقراطية.

الهوامش:

(1) المقصود بالوصل مفهوم حركة الإخوان المسلمين مثلاً، والفصل المفهوم العلماني للدولة والمطابقة اعتبار الدين هو الدولة في الدين، وأرضه ما تجلّي ذلك عند العلامة محمد حسين فضل الله (رحمه الله)، «بنهذه الشهادة التي ذكره هي ما قبله أجزأتها معاً جريدة «الخليج»، ونشرت في 28/ 6/ 2013. مفاصلة الشيوخ العالفة بين الدين والسياسة بمستوى علاقة المطابقة. يقول: «إن مسالة الفصل بين السياسة والدين تشبه مسألة أن تفصل الشيء عن ذاته أو أن تفصله عن عمقه». ومعنى ذلك واضح، فهو يرفض مبدأ العلمانية القاضي بفصل الدين عن الدولة، وهو، وبصراحة جميلة، يربط بين الدين والسياسة ربطاً قوياً، جوهرياً، مفيداً أنّ وجود الدين وجود السياسة وعدمه عدما».

ولكي يبثّ الشيخ السيد فكرته، يذكر ما يأتي: «لأن المفهوم القرآني للهدف الأساسي من الرسالات حدّدته الآية الكريمة التي تقول: «ليقوم الناس بالقسط (...)»، ويخصي شارحا فيقول: «معنى ذلك أن إرسال الرسل وإنزال الكتب كان من أجل مهمة أساسية في حياة الناس لأنها تنصّب بطبيعة الحكم في أي موقع من المواقع». إنن، العقل الذي يقدها السيد هي حجّة العدل، وكاتبه هو قائلًا: بما أن هذه الأساس المُلك، والقرآن يأمر بالعدل، إذا هو يأمر بالملك أو الدولة.

(2) سعاده، أنطون، الآثار الكاملة 1، نشوء الأمم، ص 131.
(3) للسلسلة النظام الجديد، 5: الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمديّة، ص 111 و ص 168.
(4) كتاب شروح في العقيدة، ص 38.
(5) المرجع السابق نفسه، ص 38. 39.
(6) المرجع السابق، ص 47.
(7) المرجع السابق، ص 49.
(8) كتاب المبدأئي: المبدأ الإصلاحياي الأول: «فصل الدين عن الدولة».
(9) كتاب الإسلام في رسالتيه، ص 196.
(10) نشوء الأمم، ص 126.
(11) المرجع السابق، ص 127، وفي تقسيمه للدولة في الفصل السادس من كتاب نشوء الأمم.

يتألف هذا المنعطف الشعريّ من أربع

حركات شعريّة معنوية، الأولى معنوية استهلالية

تمثّل ثعباناً عاطفياً تجرّح في المساحة «مع

كل لمسة ألم/هناك جرحٌ غيرٌ متوقّع»،

والحركة الثابتية حركة تنسيبية للحركة الأولى مستجيبة لها ومتفاعلة معها على نحو يزاوج بين الفكرة والصورة: «لأنّ القووب الكثير/ وفي حياتي صارت تظلم/ على فبابي»، والحركة الثالثة المستجوبة اعترافية ظاهرة: «فأنا بطبعي قلق» في حين أنّ الحركة الرابعة والأخيرة تنبئ بالصورة الزلّجيّة التي تجعل من الغربة مكوثاً أصيلاً دائماً في الروح والجسد: «مرّة صرّحت في وجه الشتا/ وحتى الآن/ ما زال البرد/ يرتجف في عظامي»، رغم قوّة الإحتجاج والرفض والصراخ.

أما المنعطف (ج) فهو شعريّ سيرداتيّ يبدأ بتلمّحى داخل الطقولة بصرف النظر عن فصول الحياة:

ما أجعل أن تعيش طفلاً

حتى وإن كانت هذه الطفولة

ربيع الخريف.

إذن، لا فرق بين المرأة الأولى، والعزراء الأخيرة

كلهن إحتصاصٌ للأومّة

هكذا صارت حياتي

لحمنا سدقاتي الإكثانيات

أقنر فيها

حرّبا هلمة.

ثمّة «الطقولة» وثمّة «ربيع الخريف»

وثمّة «المرأة الأولى والمرأة الأخيرة» وثمّة

«أومّة» وثمّة «سدقاتي الإكثانيات»...

فهيأت شعريّة تشتمل على «المرأة الأولى» الذاتية الشعريّة، وهي الثيمات الأكثر مركزية

في فضاء المنعطف حين لا يجد المنعطف ملاذاً يستقر فيه حينه ويأبسه سوى «الطقولة/ المرأة/ الأومّة»، بوصفها منعطفات

جوهرية يسعها أن تحفظ للإنسان المنعطف ما يمكّن أن يبقى من إنسانيّته المعرّضة

للزوال.

يظهر المنعطف (خ) واحدة من أربع أعقد تجارب المنعطف وتتألف من أربعة دوال جدليّة مترابكة هي «الحلم/الشبح/

الخوف/النوم»، بوصفها تجربة تتمتع

بقدر عالٍ من ديمومة الإستمرار والصحور

في كيان المنعطف، ويعرضها الشاعر عرضاً

سرديا يشبه اليوميات التي هي شكل من أشكال الذاكرة الذاتية:

عندما أنهض من حلّمي

اتطلّع حولي

لاشئ على فبابي

مرّة صرّخت في وجه الشتاء

وحتى الآن

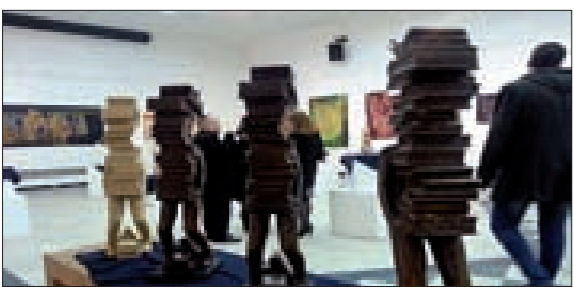
ما زال البردُ

يرتجف في عظامي.

ثقافة

الكلمة الشعريّة

معرض لجمعة الناشف في قصر الأونيسكو



جمال المحسن

احتضنت صالة المعارض الفنية في قصر الأونيسكو في بيروت لوحات الفنان التشكيلي السوري جمعة الناشف الملقب بـ«الفراتي» وتجذبه الواضح للإرهاب عبر معرض «ست الحنان» الذي أقامه وفاء وتحيّة إلى روح أبنته الشابة فاطمة الملقبة بـ«ست الحنان»، والتي استشهدت بقتيعة هاون أطلقها إرهابيون عن ساحة الأمويين في دمشق، تموز الفألت.

على مدى يومين شهد المعرض حضوراً حاشداً من الفنانين والمهتمين بالشأن الثقافي، ويؤكد الفنان الفراتي من خلال معرضه تحديده للإرهاب الأسود الذي استهدف سورية ولم يؤثر في رسوخ القيم الحضارية السورية، مشدداً إلى أنّ أبنته الشهيذة فاطمة ستبقى ملهمة لأعماله الفنية إذ تركت ذكرها شوقاً وحنيناً وإبداعاً.

يقول الفنان الفراتي إنّ الفن والإبداع والثقافة لا توقفها أيادي الغدر والمؤامرات الكونية والأعمال الإرهابية، فسورية أمّ التاريخ والحضارات وبلد الفسيفساء والعيش الواحد، مستمرة في عطائها الحضاري المتدفق، داعياً جميع السوريين إلى الالتفاف حول وطنهم ودولتهم وقادتهم الرئيس بشان الأسد، وإلى أصالتهم الحضارية التي تجلّي في الحروف الأبجدية العسماية التي انطلقت من حضارة أوغاريت، والتي يرزّن بها لوحاته، لافتاً إلى أنه استعصر في لوحاته ومنحوتاته الرمزية والتعبيرية مختلف الجماليات في الأرض السورية والتاريخ السوري العريق.

المسرحي القدير رفيق على أحمد قال لدى زيارته المعرض للمرة الثانية إنّ الفنان جمعة الناشف ذو ذاكرة وإنتماء وارتباط بالأرض والإنسان، ومن هنا إصراره على تسمية نفسه بـ«الفراتي»، وهذا يظهر في لوحاته ومنحوتاته، وأصالة المتجذرة تبدو بوضوح في مواضيعه وتشكيلاته الفنية، ونظرة سريعة إلى السجود التي وتظهره دولتهام والتعبير الرئيس بأنها وجود حارّج، من خصب الأرض بغزارة نهر الفرات وتوالئه وبالوان ترابية مستمدة من ألوان ترابها. ويضيف أحمد أنه قد لا تخلو لوحة من لوحات الناشف من السماكة اللونية، متجذراً بذاكرته المنعطفية في نهر الفرات ومحيط هذه الأرض، معتبراً أنّ ميزة المواضيع التراثية التي يتناولها الفنان هي تقديمها بجمالية فنية متميّزة، فهو يحفر في الذاكرة منطلقاً إلى المستقبل، ففي أعماله حافز على الارتباط بالأرض.

من ناحيته قال المخرج المسرحي والممثل اللبناني حسام الصباح:

«لقد عدونا جمعة الناشف على تحدي الأزمات الاجتماعية والسياسية والفنية، فهو يروي في لوحاته ومنحواته حكايات الفرات وعمق هذه المنطقة العريقة وذات الرموز التي لا يعرفها سوى المتعطف في تاريخها، وجميع اللوحات والمنحوتات المتجذرة في التاريخ حاضرة في يومياتنا وحياتنا الراهنة».

ناشر موقع «حرمون» الإلكتروني هاني الحلبي قال: «بختمت الفراتي

جمعة الناشف عام 2014 بغامهاه الباقية أبوقنات في وجمال لوحات خصب لن تزول من أراضنا السورية الباقية أبداً الدهر، فهذه الروح البناء في الحياة التي نحتاج إليها لبقدر القتل والموت والحرب الإرهابية التي تشن علينا».

تضمن المعرض 52 لوحة و17 منحوتة من الصخر والبرونز تعبر عن إرادة الحياة والأمل في تجاوز المحنة السورية ومحنة الفنان الشخصية بقفان ابنته.

الفنان الناشف من مواليد الرقة عام 1969، عضو اتحاد الفنانين التشكيليين السوريين، حائزٌ عدة جوائز في مجال النحت والرسم بينها جائزة في مهرجان بصرى عام 1985. له العديد من المشاركات في المعارض الفردية والجماعية في النحت والرسم، وبينها معرض الفنانة في بيروت عام 2011 تحت عنوان «تحية حب ووفاء لسورية الحبيبة»، ومعرض في قصر الأونيسكو في بيروت عام 2013 تحت عنوان «وجه أمي» ويرمز فيه إلى سورية أمّنا.

يتجلّى المنعطف اللاحق (د) تجلياً ثقافياً مكثافاً حين تخاطب الذات الشاعرة أنّها لتوكيد الانتماء وتمثّل جوهر الهوية:

صديقي بقية ضلعي في كردستان
صديقي مهادمته عميقاً في جرحي
قدمي نائمٌ
في شقائق النعمان

يتكرر فعل الأمر الطلبيّ المقترن بالآخر الأنتي «صديقي» مرّتين لمضاعفة التوكيد مضاعفةً جسدية «ضلي»، بإحالته على، ضلع «آدم» الذي خرجت منه «حواء»، و«دومي» بصفة «نائم»، وهو يجعل على الدبسية والاستقرار، حين يتبادل دال «كردستان» مع دال «شقائق النعمان»، بغيره الإشارة إلى فكرة الانتماء بوصفها حالة شعريّة داخل ضلع النبي بوصفه حالة واقعية، على نحو تتفاعل فيه الحالتان كي تتحققا منظراً شعرياً يستقبل الرؤية ويتضمنها ويوحج بها ويجعل عليها، كي تكون وسيلة محتملة أخرى من وسائل فهم المنعطف التي ستبقى مفتوحة على أفاق لمناتهي.

أما المنعطف الأخير (ر) فيتملّ يومية شعريّة نهائية وحاسمة تثقل المنعطفات مثلما تثقل المجموعة الشعريّة كلها، بل يقدم المنعطف صورته الحكيمية وهي تلخص محنة الشاعر/المنعطف حين يتعلم درس الطفولة ما بين «الوهم» و«الصدى»:

تعلّمت من طفولتي:
العنتاة بالوهم

وإيقاظ الذهب النائم
في الأساطير

حيث لا شيء حقيقيّ

سوى الصدى.

الأقانيم الدوائيّة المشكّلة لهذا المنعطف

على المعنى الشعريّ المتديّن من الجملة

الشعريّة الكثيفة «إيقاظ الذهب النائم/ في

الإساطير/ حيث لا شيء حقيقيّ»، ليكون

دال «الطقولة» مولوداً لـ «الوهم» وممتجا لـ

«الصدى»، على نحو يجعل بقوّة تصويرية

وإدالية مكيّرة على دالته «المنعطف»، فلا شيء

يمكن أن يجعل هذه الأقانيم الشعريّة الثالثة

تنتسج بالتأثير والتمادي الشعريّ في

المنعطف أكثر من العصور الميهم لـ «المنعطف»

لذّة عنية الحضارة الكبرى في المجموعة

«وسيلة لفهم المنعطف»، وما هذا التفاعل

الحاصل بين «الطقولة/الوهم/الصدى»

بقيهما الذاتية الماوضوية والذهنيّة

التصوريّة والسبعيّة الخائبة سوى إحدى

الوسائل العنقفيّة لفهم المنعطف.